من الأدب الفارسي

ألحان شاعر

للقصصي الايراني المعاصر

الاستاذ محمد هجازي

ترجمها

جعفر صادق الخليلي .

انه صديقي قبل ان يكون قريبي، وهو شاعر تعرفونه - ولا شك - بروحه إن لم تعرفوه بجسده ، إذ مامن احد سمع ترانيمه الساحرة ولم ينجذب اليها .

علمت يوماً ان انحرافا اصابه في صحته، وكان يوماً مشرقا من ايام ادبار الخريف حين ذهبت لعيادته الى (شميران) . . لكم يعاني هذا الكيان النحيف في حبه للجمال ! إنه لايطيق ان يرى ذرة من الغبار تعلو قرص الشمس المشرق . . انه يريد النجوم ان تكون متلألئة لامعة دائما ، ولهذا ترك المدينة ليسكن سفح الجبل في شميران ؛ ولكنه - مع ذلك - قلما استطاع ان يمسك نفسه عن زيارة المدينة كل يوم ، حيث يدفع به عشقه للجمال ان يركب رجليه باحثا هنا ومنقبا هناك .

كان الباب مفتوحا ؛ فدلفت الى الداخل وتريثت في حديقة الدار لحظات متفكراً فيما يحيط بي من روعة وجلال . لقد رأيت روح الفن تتقمص كل شجرة وكل زهرة ، وشعرت بقدسية الشاعر تتجلى في هذا المعبد الطبيعي الاخاذ .

دخلت عليه غرفته الخاصة دون ان اصادف في طريقي احداً ؛ اذ ليس على قلب الشاعر او بيته حاجب او حارس فالفيته قابعا تحت الكرسي « * » بمفرده ، منهمكا في الكتابة ، فالتفت الي بنظرة خاطفة وعاد الى ما كان بين يديه من الاوراق ، دون ان ينبس ببنت شفة .

جلست قباله انعم النظر فيه متفرجا كانت تبدو على وجهه آيات التعب والاجهاد اذ كان سريع التلون والتغير ، كمن تجتاح قلبه اعاصير الغم ولكنه يريد اخفاءها ، او كمن تتجاذبه افكار متنوعة ولكنه يخجل من تصويرها ، او كالذي لايجد لكربه مفرجا غير البكاء ولكن الدموع مستعصية عليه .

قلت : اراك قد تعسرت عليك القافية ! أفي السماء الرحيبة تبحث عنها ؟ ام في اغوار قلب كاعب نفور ؟

قال : لو كنت اصوغ مائة قافية لما تعسرت علي احداها تعسر هذه الرسالة التي بهظتني كتابتها ايما ابهاظ !

قلت : اقرأ لعل الله يفتح علي فيما اغلق عليك . .

فقرأ (.. ايتها الحبيبة المجهولة ! يامن يستحق روحك ان يرى ! إعلمي انت ايضا ، ان درة بهذه النفاسة من الظلم ان توهب (لدرويش) مملق ، ان من لا يملك لنفسه ولقلبه مأوى ؛ اين يستطيع ان يحتفظ بجوهرة هي اثمن عنده من الحياة ؟ . انني وان كنت اخوض آفاق السماء مع الملائكة الاطهار، غير اني لا املك فوق هذا التراب مايؤهلني لاستقبال حورية من حورياته ! . .)

قلت : يظهر ان هذا جواب لرسالة ، فهلا اريتنيها اولا ؟

قال : انها حورية تقول :

(. . . ايها النغمة الالهية ، يامن يستحق روحك ان يسمع ! اعلم انني لن تستوقفني العين واليد والصورة ، انما باذني ارى العالم واحسه واسمعه ! انني لم ارك مطلقا ، ولكن لا ! . لقد رأيتك باذني فاحببتك . ان صورتك لمطبوعة على كل موجة من موجات الحانك المريبة للروح ، اجل ليس هناك مجال للشك، فانت انت بنفسك، باذني رأيتك وسمعتك واحببتك ،

« * » من المألوف في ايران استعمال الكرسي في الايام الباردة ، وهو عبارة عن مقعد واطيء عريض وبلا متكأ، يوضع تحته موقد صغير ثم يبسط عليه لحاف كبير بعد وضعه في وسط الغرفة ، ليجلس حوله افراد العائلة مادين ارجلهم تحت اللحاف .

(واعلم ايضا ان قلبي لايتبع عيني ، انما عيناي تتبعان اذني .. انني اسمع الازهار حين تتهامس راقصة ، فلكل زهرة لسان ونغمة ..

ان وفي تمايل الاغصان؛ وسقوط اوراقها لأحاديث والحانا انني اجد كل نبتة وشجيرة تشاركني الغناء مارغبت ، دون ان يصيبها نشوز او يعتورها كلل ، فلكل ماتحت الشمس : لأبي وامي ، ولاصدقائي ومعارفي ، ولكل بيت وثوب وحذاء ولكل لون ورائحة ، لحن خاص في اذني .. ولكن الحانك عندي اعذب واسمى ! ..

اتتذكر ؟ .. لقد كنت في (اوشان) أسير بين الحقول ـ والشمس تترنح غائبة ـ حين اخذت قطة عاشقة تمسح ظهرها الناعم قريبة مني بجذع شجرة ، وهي تئن انينا حزينا ذا (نوتة) مسترحمة ، وفجأة طرقت سمعي نغمات نايك الحنون تساير مواء القطة المؤثر ، برقتها واللوعة المتفجرة من بين هزاتها ، فشعرت كأن هذه القطة الصغيرة تبثني شكواك وآلامك ، فامسكت بها في حجري ، واخذت اغني لها (انشودة الناي) وانا امسح على شعرها الاملس بعطف ؛ واشتركت معنا في الايقاع مياه أساقية بخريرها الخافت ، وكان القمر الصامت في عليائه يتابعنا في الغناء، بشحوب وجهه وضعيف سناه .

وعلى حين غرة ظهر بيننا كلب مخيف هائل الجثة ؛ ففزعت القطة وهربت من بين ذراعي ، فتعقبها الكلب لينشب فيها اظفاره . وسمعتك ، في الحانك الحائرة ، ومن بين حفيف الاوراق ؛ وخرير مياه الجدول ، تهيب بي قائلا : لاتتركيه يؤذيها ! اسرعي ! فمدوت اليهما مضطربة مرتبكة ، وكيفما كان فقد خلصت القطة من بين انياب الكلب الحادة .. كانت الدماء تسيل من جسمي ، وحريق الجروح يؤلمني ، أما في فقد كان ضاحكاً وعيناي عالقتان بالقمر ، لان صورتك كانت تتراءى لي في ضوئه ، والحانك العذبة مازالت تنساب مع خرير الجدول في نفسي فتداعبني وتسليني بحنانها المهدىء . لست ادري كم دام هذا الحلم السماوي وانا مضطجعة على الاعشاب ، فقد جاءوا واخذوني . ان جروح بدني لم تلتئم بعد . . .

ولكنك لاتذكر :

(واعلم ايضا انني لم اقتطف في حياتي وردة قط ؛ فلست اجد المادة في نفسي لذة ، ولكنني اريدك انت لاتسمعك وانتشى من خمرة الحانك، فان كنت انت ايضا من ارباب العيون الباحثة عن المادة فحينئذ اقول لك انني لست بقبيحة المنظر ؛ بل وعلى شيء من الجمال؛ وحولي جمع ملح يطلب يدي، ولكن الحانك عندي اعذب واسمى ! . .

(واعلم ايضا ان هذه هي المرة الاولى التي تجذبني فيها الموسيقى الى معبد الحب ضارعة راجية ؛ وليس لي الى الخروج من هذا المعبد سبيل !

عابدتك . . .)

قلت : الآن جاز لك ان تقرأ لي مابقي من جوابك فجفف دموعا كانت قد وجدت طريقها الى الخروج ثم قرأ :

(... لقد كنت انتظر من لحاني واناتي ان ترفعني معها الى السماء وتسموبي ؛ لا ان تجرني وتجرمي الى الارض غيري من البشر. ان هذا القلب الجريح الذي يؤلمه الهمس اذا ارتفع ، ويسمع شكوى المشردين في اقصى كهف فيذوب لوعة وحسرة ، وتقطر الدماء منه دون مانقطاع ، ليس لمليكة الحياة فيه عرش ولا صولجان .

(واعلمي ايضا ان ألحاني المحبوبة لديك ، كم هي عنيدة حرون ! انها صماء حيث تجب الثرثرة والهذر ، وثرثارة حيث يجب الصمت والهدوء . انني ازداد جهلا بها كلما درستها وتمعنت فيها ؛ ولكنني عبقري طالما تركت لها العنان تقودني حيث تشاء . تتلكأ حين اطلب الاسراع ، وتوقظني ان رغبت في النوم . قد تشيح بوجهها عن كاعب لعوب في جنينة وارفة وتفور جياشة صاخبة حين تلمح عجوزاً شمطاء بين الخرائب والاطلال ، تتخلى عني في الافراح ومجالس السرور ، فلابد ان ابتلى بالهجر والحرمان ان اردتها تتغنني ، انها مصدر خطر لي وعذاب ، تشدو بلا مناسبة في المسجد العامر بالمصلين ، وتخمد مقطعة الانفاس في المشارب والحانات ، تزوي بين حاجبيها إن رأت جمالا يفتر ، وتنفر إن ابصرت احمق يتكبر وفي الوقت الذي يجب ان احلق في السماء طائراً ، تجذبني الى

الارض كحشرة . انها تغير في فمي طعم الحياة ولا تدعني اتنعم بما حولي من وسائل الراحة والرفاه ، فالمحسوس عندها وهم باطل ، والخيال في شرعها وجود كامل . تنفرني من الشخصيات والعظماء ، وتزرع في قلبي بذور الكراهية تجاه الزعماء . انها تربطني بمخلوقات غير منظورة ، حيث تريدني وحيداً في هذا العالم غريباً حديثها مع الحجارة والطير والماء ، ومع كل ماهو ليس بانسان ، حديث طويل ذو شجون ، ولكنها حين تخاطب اخواني من البشر تعيى ولا تملك ان تعبر عما يرفرف بين حناياها كما يرغبون !.. كم من مرة سمعت الحاني باذني غير اني لم افهم منها شيئا ، فكأنها فتى مثقف عالم ، وانا ابوه الفارغ الجاهل !

(وانا بين هذا الجذب والدفع ليس لي الا ان اطاطئ رأس التسليم امام من لن استطيع لها عصيانا ، وعن طاعتها خروجا .

(فاعلمي ان من الحيف ان تعشقي الجنا لشاعر ....)

قلت : لماذا لاتكمل ؟

فسكت لحظة يتأوه من قلب هضيم ، ثم قال : الحق انني لم احب فتاة كهذه ، انها المعشوقة التي كنت ابحث عنها دون جدوى ، ولكن ماذا افعل ؟ ! لن استطيع .. انك تفهم النساء .. إن رؤوسهن وان كانت مرتفعة في السماء ، ولكن اقدامهن ملتصقة بالارض لاتتقلع ، فانا الان احاول ان ارمض بكلمة او بنظرة تفي بالمرام دون ان اخدش عواطفها فابقى غرضا لضميري ماحييت ، ولكني لااحد ، فلست ادري حتى اني وجه انهي هذه الرسالة .

ثم احتوانا الصمت ولفتنا الافكار ، وقد تبين لي انه غير راغب عن هذا الزواج ، انما تعوزه وسائله المادية فهو لايسيغ لنفسه اقحامها في حياة متعسرة كحياته . انه شاعر بحق يعبد الظرافة والادب والجمال ، حسن البزة معطر الملابس مفتر الثغر مؤدب في حديثه عطوف ، لن تجد في اخلاقه ذرة مما في انصاف الشعراء من العجرفة والغرور ، لايتحدث عن نفسه ولا يتبجح بادبه ، لم يشك يوما لاحد من دهره الذي جعل بني وطنه لايقدرون ادبه وفنه ، ولم يتوقع منهم التبجيل كما يبجلون مدعي الادب . ان هذا الشعب في عرفه لم يصل بعد الى سن الرشد الفكري ، ولا زال يجهل ماللعلم والمعرفة من منزلة رفيعة ، انهم كالاطفال اذ يلعبون بالتراب ، فهل من الاطفال ينتظر تمييز الصالح من طالح ؟ أما إن شكى فمن الحانه التي تسد في وجهه سبل العيش كما يعيش الاخرون . ان شاعراً كهذا لن يستطيع ان يرى حبيبته تتلوى تحت ضغط الفاقة والحرمان انه قد ادمى قلبه حبا بالجمال ورحمة به . ما ارهف شعورك ايها الشاعر الشهيد ! إن الحب بقوته وجبروته لم يستطع ان يبعد الحكمة عنك او يقرب من بعد نظرك ! .

ولاحت مني التفاتة اليه فرأيته مازال يكفكف دموعه فقلت كيما اغير من مجرى افكاره :

ـ اليس انا ان نعقد محفل انس بين هذه الحدائق الجميلة وعند تفتح اكمام الورد ؟

فقال : انا آسف جداً .. انني هنا كحارس لهذا القصر ايام البرد والصقيع ، حيث يعز المستأجرون فان وافى الربيع فدلوني بيت حقير ناء ، وهناك لست تجد وردا اوزهرا .

فانقبضت نفسي ، وتصاعد الدم الى رأسي ، ولكني حاولت ثانية فقلت :

ـ أتعلم ان رسالتك مدية تغرزها في قلب هذه الفتاة ؟!

فتبسم بمرارة وقال : اجل ! وان لهذه المدية رأسين ، ينوص المسنون منها في قلبي انا .

فقلت وقد احتدمت غيظا : دع الرسالة جنبا ولاترسلها أيحتم على الشاعر ان يعيش معدما ؟ ان أثرة حتى لشاعر الذي يحمل قلبه وفكره الى مصباحين ينيران طريق الشعب الدامس ، ويوصلانه الى غايته .

فقطع كلامي وقال : لاحاجة لدليلك وبرهانك أنني اتمنى من الله ان يفيلني ما يمنع عني ذل الحرمان فقط .

قلت : هناك شاب تاجر يمت الي بصلة معرفة ، كان يلح علي في الدخول معه باب الاعمال التجارية ، فلنذهب اليه غداً فلعل في ذهابنا خيراً .

قال : وهل هناك احب الي من هذا ؟ وسأسعى ان اجعل (استاذي) راضيا عني .

وفي اليوم التالي ذهبت واياه الى شارع (بوذرجمهري) حيث يقع (خان ...) وارتقينا المرقاة الى الطابق الثاني ،